الفصل الثامن

نخبة الفاسدين الخارقين للطبيعة(١)

هرطقة الروح الحرة (ص ١٤٨)

بالمقارنة مع القدر الكبير الذي كتب عن الهرطقة التي تعرف بأسماء مختلفة : الكاثارست و البيجنسيان والنيومانشيان نجد أن ادبيات هرطقة الروح الحرة أو الحرية الروحية ضئيلة في الواقع ، وهذا ليس مدهشا بمجمله ، إذ بينما تحكمت هرطقة الكاثارست تماما بالحياة الدينية لقسم كبير من جنوب فرنسا لمدة نصف قرن أو اكثر حتى تحطمت قوتها بفعل حملة صليبية غيرت تاريخ فرنسا ، نجد أن قصة أتباع الروح الحرة أقل وضوحا في دراماتيكيتها ، ومع ذلك ففي التاريخ الاجتماعي ــ تمييزا له عن السياسي الصرف ــ لغرب أوروبا شغلت هرطقة الروح الحرة دورا اكثر اهمية من الكاثارية ، والمنطقة التي امتدت فوقها كانت بمعايير القرون الوسطى واسعة ، ففي القرن الرابع عشر عندما أراد رجل في موراڤيا الانضمام الى واحدة من طوائفها اقتيد عبر أوروبا حتى قدم الى واحدة في كولون ، في حين أن الاعضاء من النساء كن يتخذن طريقهن من كولون إلى طائفة في أعماق سيليزيا على بعد ٤٠٠ ميلا ، وبعد قرن مارست فرقة من الاتباع من بيكاردي نفوذا ملموسا على ثورة التابوريت في بوهيميا ، وكان لهذه الحركة قدرة استثنائية على البقاء ، لأنه مع تعرضها للمضايقة باستمرار و للاضطهاد بقيت كتقليد معروف يمكن تمييزه لنحو خمسة قرون .

إن هرطقة الروح الحرة بناء عليه تتطلب مكانا في اي عملية مسح للاخرويات الثورية ، وهذا مايزال صحيحا مع أن رجالاتها لم يكونوا ثوارا اجتماعيين ولم تجد اتباعها بين الجماهير المتمردة من

فقراء المدن ، فلقد كانوا في الحقيقة عرفانيين (غنطو سيين) ركزوا جهودهم على خلاصهم الفردي ، ولكن درجة العرفان التي بلغوها كانت فوضوية صوفية ظاهريا ، مجرد تاكيد لحرية طائشة مفرطة حتى أنها تعادل الانكار الكلي لكل نوع من الكبح أو التحديد ، ويمكن اعتبار هؤلاء الناس أسلافا بعيدين لباكونين Bakunin ونيتشة Nietzsehe ، و بالاحرى لأهل الفكر البوهيميين الذين كانوا خلال نصف القرن الاخير يعيشون في افكار سلف أن عبر عنها باكونين (ص ١٤٩) ونيتشه في لحظات ضلالهما ، ولكن الفرديين المتطرفين من هذا النوع كان يمكن ان يتحولوا بسهولة الى ثائرين اجتماعيين ــ وفعالين في ذلك ــ فاذا قامت حالة ثورية محتملة ، فان انسان نيتشة الخارق للطبيعة مهما كانت صورته بدائية فوضوية قد استحوذت بالتاكيد على خيال كثير من « البوهيميين المسلحين » الذين صنعوا الثورة الاشتراكية ــ الوطنية ، وكان كثير من انصار الامس القريب للثورة العالمية مدينون لباكونين اكثر من ماركس ، وفي العصور الوسطى المتاخرة كان اتباع الروح الحرة هم الذين حفظوا كجزء من عقيدتهم حول الانعتاق الكلي ، المذهب الاجتماعي الثوري الشامل الوحيد في الوجود ، ومن أوساطهم خرج النظريون ليلهموا اعظم التجارب طموحا في الثورة الاجتماعية الشاملة ، التي شهدتها أوروبا العصور الوسطى على الاطلاق .

وقد اعتبرت هرطقة الروح الحرة زمنا طويلا واحدة من الظواهر الاكثر غموضا وتعقيدا في تاريخ العصور الوسطى وقد نوقشت طبيعتها كثيرا من قبل المؤرخين ، وكثيرا ما اقترح أن مثل هذه الحركات لم توجد على الاطلاق خارج اللاهوت الجدلي للكهنة ، الذين كان همهم الوحيد تشويه سمعة وتكذيب كل مغامرة للمعارضة او الانشقاق ، ولكن هذه الشكوك يمكن أن توجد فقط لانه لم تتم آية محاولة للاستفادة من المصادر المتاحة ، وليست المصادر المعادية ــ تقارير الاستجواب ، والانذارات والادانات التي نطق بها البابوات

والاساقفة ، والرسائل الجدلية لعلماء اللاهوت ، وما كشف عنه الاتباع المتحررون من الوهم — في الحقية هي المصادر(كما كان يعتقد كثيرا) الوحيدة الموجودة ، وكما لاحظ الكهنة تكرارا برعب ، إن أتباع الروح الحرة قد أفرزوا أدبا مذهبيا وافرا خاصابهم ، ومع ان هذه الاعمال قد تم الاستيلاء عليها وتدميرها من قبل المحققين ، هنالك مواد ثلاثة متوفرة للدراسة ، وكانت اثنتان منهم متوفرتين لسنوات عديدة : رسالة تدعى سكويستر كاتري (الاخت كاترين) ، كتبت في القرن الرابع عشر باللهجة الالمانية للطبقة الالمانية العالية والمتوسطة ، وحفظت بنسبتها — بشكل خاطىء تماما — الى الصوفي الدومينيكاني مايستر ايكهارت وقائمة عن « موضوعات العقيدة » باللاتينية اكتشفت في صومعة ناسك قرب الراين في القرن الخامس عشر ، وهي بالتاكيد أقدم من ذلك بكثير والموضوع الثالث هو نص صوفي طويل يدعى (مرآة الارواح البسيطة) نسب من قبل الى صوفي اصولي غامض ، وتم الان تحديد هوية هذا النص الان من قبل الاستاذة رومانا غوارمنييري على أنه من اعمال خبيرة مشهورة بالروح الحرة ، هي مرغريت بوريت ، وقد احرقت مرغريت كمهرطقة في ١٣٠٠ وقد تحول كتابها ليصبح وثيقة رئيسة في تاريخ الروح الحرة واضطهادها .

وربما هناك نصوص اخرى مثلها ماتزال في انتظار الكشف . وفي الوقت نفسه إن ما هو متوفر بالفعل يمضي بعيدا ليظهر ان الروايات التي اعطاها الكاثوليك عن هرطقة الروح الحرة كانت (ص ١٥٠) صحيحة فعلا ، ويمكن أن تردف بادلة اخرى ، من فقرة تالية ، ففي خلال الحرب الاهلية الانكليزية وبعدها وجهت اتهامات ضد اعضاء طائفة معينة معروفين عند خصومهم باسم الصخابين ، كانت تكرارا للاتهامات التي وجهت في قرون سالفة الى خبراء الروح الحرة ، ومثل كتابات مهرطقى القرون الوسطى ، فان كتابات الصخابين حكم عليها بالاحراق ، ولكن نسخا قليلة نجت ، ويمكن مقارنة هذه الاعمال بالاتهامات وحتى تاريخ اعادة طبع عينات منها في الطبعة الاولى عن الدراسة الراهنة كانت هذه المادة قد اهملت عمليا من قبل

مؤرخي الروح الحرة ، وذلك على الرغم من علاقتها الكبيرة ، والعينات المعطاة في ملحق هذا الكتاب تغطي كامل مجال ديانة الروح الحرة من اكثر جوانبها روحانية الى اكثرها جفافا ، وهي تثبت بشكل حاسم انه في القرن السابع عشر كانت توجد بالفعل حركة قريبة الشبه بتلك التي ظهرت في مصادر القرون الوسطى بصورة اقل اكتمالا ، وفي اطارها العام .

ويمكن تاريخيا اعتبار هرطقة الروح الحرة صورة محرفة من الصوفية التي ازدهرت بقوة في النصرانية الغربية من القرن الحادي عشر وما بعده ، وقد انبثقت الهرطقة الصوفية والارثوذكسية على السواء من الحاجة الماسة الى الفهم المباشر والصلة الحميمة مع الرب ، وكلاهما على السواء اكد القيمة الحدسية وبشكل خاص لانجارب الوجدانية ، وكلاهما على السواء قد اثير الى حد كبير باعادة اكتشاف الفلسفة الافلاطونية المحدثة التي اخذوا منها القسم الاكبر من جهازهم المفاهيمي ، وهنا مع ذلك ينتهي التشابه ، ولقد عاش الصوفيون الكاثوليك تجاربهم ضمن تقاليد وثقت وخلدت بكنيسة مؤسساتية كبيرة،وعندما ـ كما حدث كثيرا ـ انتقدوا هذه الكنيسة كان هدفهم تجديدها ، وكان اتباع الروح الحرة من جانب آخرغير موضوعيين بشدة ، ولايعترفون بسلطة على الاطلاق سوى خبرتهم الخاصة ، وفي نظرهم كانت الكنيسة في احسن الاحوال عقبة للخلاص ، وفي اسوا الاحوال عدوا طاغيا ـ وعلى اي حال مؤسسة بالية يجب استبدالها الان بطائفتهم ، التي نظر اليها كوعاء للروح الحرة .

وكمن قلب هرطقة الروح الحرة في موقف كل واحد من الاتباع تجاه نفسه ، وقد اعتقد كل منهم انه بلغ درجة من الكمال المطلق لدرجة انه لم يعد قادرا على اقتراف الاثم ، ومع ان النتائج العملية لهذا الاعتقاد يمكن ان تختلف ، فان احدى النتائج الممكنة كانت « الانتينوميانيزم »

او انكار المعايير الاخلاقية ، وكان الرجل الكامل يمكنه دائما ان

يصل الى محصله انه كان مسموحا له ، حتى وإن لم يكن الزاميا بالنسبة له ، ان يفعل كل ما كان عادة يعتبر ممنوعا ، وفي المدنية المسيحية التي كانت تعطي قيمة معينة للعفة ، وتعتبر الاتصال الجنسي خارج اطار الزواج عملا (ص ١٥١) اثما بشكل خاص ، ومثل هذا الانكار للمعايير كان عادة ياخذ على الاكثر صورة الاتصال غير الشرعي من حيث المبدا ، وكانت الاتهامات بهذا الاتصال غير الشرعي بالطبع كثيرا ما تصدر من طائفة دينية ضد اخرى ، ولقد كانت تقنية دينية اصيلة للهجوم في الكنيسة القديمة ، كما كانت في كنيسة العصور الوسطى ، ولكن عندما وجهت ضد اتباع الروح الحرة اتخذت هذه الاتهامات مظهر مختلفا ، وما ظهر عندئذ هو صورة مقنعة تماما من الشبق كانت بعيدة عن الانطلاق من العشق والانغماس في الشهوات بلا هموم تملك فوق كل شيء ، قيمة رمزية كعلاقة على الانعتاق الروحي ، وهي بالمصادفة القيمة التي كثيرا ماتملكها « الحب الحر » في ازماننا .

وفي منطقة امتداد النصرانية الغربية ، من غير الممكن تمييز هرطقة الروح الحرة بأي تأكيد قبل بداية القرن الثالث عشر ، ومن جانب اخر فان الديانات المشابهة قد ازدهرت قبل ذلك الوقت في كل من منطقة امتداد النصرانية الشرقية واسبانيا المسلمة ، وتقريبا منذ بداياتها ، كان على الكنيسة الارمنية ان تتغلب على الطائفة الصوفية المعروفة باسم اليوخيت او الميساليين التي ازدهرت في المنطقة حول الرها في وقت مبكر يعود الى القرن الرابع ، وكان اليوخيت « رجالا مقدسين » عائمين يعيشون من التسول ، وقد طوروا شعورا ذاتيا بالقدرة والاهمية يعادل تاليه الذات ، وذكرانا للقيم كثيرا ما عبر عن نفسه في الشبق الفوضوي .

ونحو نهاية القرن الثاني عشر شهدت مدن اسبانية مختلفة وبشكل خاص اشبيلية نشاطات اخوة صوفية اسلامية ، وكان هؤلاء الناس يعرفون بالصوفية وكانوا « متسولين مقدسين » يهيمون في مجموعات من الشوارع والساحات في اسمال مرقعة متعددة الالوان

وكان المبتدئون بينهم يدربون على اذلال النفس وانكارها : وعليهم ان يلبسوا الاسمال ، وان يبقوا عيونهم مثبتة علي الارض ، وان ياكلوا المواد الغذائية المقززة للنفس ، وان يدينوا بالطاعة العمياء لرئيس الجماعة ، ولكن ما ان ينتقلوا من حداثتهم كان هؤلاء الصوفيون يدخلون عالما من الحرية التامة ، ينكرون حفظ ـ الكتب والدقة الدينية ، لقد كانوا يتمتعون بالمعرفة المباشرة للرب ـ وفي الواقع انهم شعروا بانهم متحدين مع الجوهر الالهي في اتحاد حميم للغاية ، وهذا بدوره حررهم من كل القيود ، وكل نبضة كانت امرا الهيا ، والان يمكنهم ان يحيطوا انفسهم بممتلكات دنيوية ، ويمكنهم ان يعيشوا في ترف ـ والان ايضا يمكنهم ان يكذبوا وان يسرقوا او يزنوا دون وخز ضمير ، فطالما اندمجت الروح من الداخل بالرب ، فان الاعمال الظاهرية لم يكن لها اعتبار .

ومن المحتمل أن الصوفية و قد تطورت من القرن التاسع ومابعده ، كانت هي نفسها مدينة بالكثير لبعض الطوائف الصوفية المسيحية في الشرق ، وبدورها يبدو (ص ١٥٢) انها قد ساعدت على نمو صوفية الروح الحرة في أوروبا المسيحية ، وبالتأكيد إن كل سمة من السمات التي تميزت بها صوفية القرن الثاني عشر في إسبانيا ـ حتى في كثير من التفاصيل مثل الملابس المرقعة متعددة الألوان ـ ستتم ملاحظتها كأنماط لما تبناه أتباع الروح الحرة بعد قرن أو إثنين من الزمان .

وعلى أي حال في نحو ١٢٠٠ بدأت ديانة الروح الحرة في الظهور بمثابة هرطقة متميزة تماما في المسيحية الغربية .

العموريون

في وقت مبكر في القرن الثالث عشر كان مذهب الروح الحرة قد توسع إلى نظام ديني وفلسفي شامل ، وكان هذا عمل مجموعة بالغة الاهمية ، تضم رجالا دربوا في أعظم مدرسة للديانة الارثوذكسية في

النصرانية الغربية ، اي جامعة باريس ، وقد أعطيت الرواية الكاملة من قبل المؤرخ الالماني ، راعي دير هيسترباخ الذي كتب يقول : « في مدينة باريس ينبوع كل المعرفة وبئر الكتابات الالهية ، طبع الشيطان بالتحريض في الذهن فهما خاطئا لدى كثير من العلماء والمثقفين » ولقد كانت عدتهم اربعة عشر شخصا كلهم من الكهنة ، وقسس الأبرشيات والقصور والشماسة والقندلفتية من باريس وضواحيها ومن مدن مثل بواتيه ، ولوريس قرب اورليانس وترويس« رجال ذوي معرفة كبيرة وإدراك » ، هكذا يكاهم المؤرخ نفسه ، وبالجملة يبدو الوصف مسوغا : إن تسعة من الأربعة عشر درسوا اللاهوت في باريس ، ويقال إن إثنين كانا في العقد السابع من العمر ، وكان قائدهم رجل اسمه وليم ، وهو ايضا كاهن مختص باللاهوت وكان يعرف بالاور يفكس مما ادى إلى اعتباره صائغا ولكن ربما كان هذا يعني انه كان كيميائيا فلسفيا ، ذلك انه غالبا مارمز بالذهب إلى القوى السحرية الكامنة في النفس التي طمح مثل هذا الكيماوي إلى إيقاظها .

وجزئيا بسبب حماقة وليم ، أو التجسس المنظم بواسطة اسقف باريس ، اكتشف المهرطقون وطردوا . وباستجوابهم في مجمع عقد برئاسة رئيس اساقفة سنز، ارتد ثلاثة وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ولكن البقية صرحوا علنا بمعتقداتهم الهرطقية واحرقوا طبقا لذلك ، وحتى في لحظة الموت لم يظهروا اي علامة على الندم .

ويمكن لتعليق المؤرخ أن يستحضر في الذهن جو تلك اللحظة : « وهم يقادون للعقاب قامت عاصفة غاضبة حتى لم يشك احد في ان الهواء قد اثير من قبل الكائنات التي اغوت أولئك الرجال ، الذين أصبحوا الآن على وشك الموت ، بسبب ذنبهم العظيم ، وفي تلك الليلة طرق الرجل الذي كان رئيسا لهم باب إمراة معتزلة . واعترف بذنبه في (ص ١٥٣) وقت متأخر جدا وأعلن انه كان الآن ضيفا هاما في الجحيم ومحكوم عليه بالنار الأبدية » وكان المعلم الفلسفي لهؤلاء المتعصبين عموري أوف بين محاضرا لامعا في المنطق واللاهوت في

obeikandl.com

جامعة باريس ، وقد تمتع هذا الرجل في وقت واحد بهيبة عظيمة وبرعاية البلاط الملكي ، وكان بين أصدقائه عدد من الشخصيات البارزة بينهم زوجة الابن البكر للملك وكانوا متأثرين بأفكاره ، ولكن في النهاية وقد شجب أخيرا لتعليمه مذهبا خاطئا ، ادين من قبل البابا واجبر على الارتداد العلني ، وقد حطمت هذه التجربة روح عموري ، فلزم فراشه وبعد فترة قصيرة ـ في ١٢٠٦ او ١٢٠٧ ـ توفي ، وعندما اكتشفت هذه الطائفة المهرطقة بعد ذلك بعامين أو ثلاثة أعلن الاكليروس على الفور مسؤولية عموري واطلقوا على المهرطقين اسم « المريكان أو العموريين » . وقبل إعدامهم بالفعل عممت رسالة مضادة للعموريين ، وبعد بضع سنوات ، في ١٢١٥ كان الكاردينال روبرت أوف لورسون القاصد الرسولي ، الذي كان مخولا بصياغة القوانين للجامعة دقيقا في منع كل دراسة « الملخص مذهب عموري المهرطق » . وفي مجمع اللاتيران للسنة نفسها اصدر انوسنت الثالث حكمه في مرسوم قال فيه : «إننا نشجب وندين العقيدة المنحرفة لعموري العاق ، الذي كان قد أعمى عقله ابو الكذب حتى أن مذهبه لايعتبر هرطقة بقدر ماهو جنون » وفي الوقت نفسه الذي أحرق فيه أفراد الطائفة نبشت عظام عموري ونقلت إلى أرض غير مقدسة .

وكل ماهو معروف بشكل مؤكد عن مذهب عموري انه كان من الصوفية المؤمنين بوحدة الوجود ، التي تدين بالكثير لتقاليد الأفلاطونية المحدثة وبشكل خاص للشرح الأفضل للافلاطونية المحدثة الذي تم في أوروبا الغربية بعنوان « اقسام الطبيعة » لجوهان سكوتس إريجينا . وهذا الكتاب الذي كان عمره ثلاثة قرون ونصف القرن لم تسلف إدانته بالهرطقة من قبل ، ولكن الفائدة التي استمدها عموري منه أدت إلى إدانته من قبل مجمع سنز في ١٢٢٥ ، وحامت الشكوك أيضا حول الملخصات العربية والحواشي على ارسطو التي كانت قد بدأت لتوها تظهر مترجمة إلى اللاتينية في باريس،وأدان المجمع الذي أدان العموريين أيضا هذه الأعمال وابدى كورسون تحفظات ضد دراستها في قوانين الجامعة

في ١٢١٥ ، وإنها حقيقة غريبة أنه لدى أول ظهور للعملاق الفكري في أوروبا الذي كان عليه أن يضع إطار الفلاسفة الأصولية للعصور الوسطى قد حظر للشك في إلهامه لعموري أوف بين ، ولكن هناك القليل في أي من هذه التأملات الميتافيزيقية الغيبية مما يفسر المذهب المتفجر الذي اكتشف في ١٢٠٩ .

وسيكون دائما موضع شك مدى مسؤولية عموري الحقيقية عن مذهب العموريين . (ص ١٥٤) لقد كان عموري فيلسوفا محترفا ، وكانت للعموريين اهتمامات مختلفة تماما في كل تعليمهم الجامعي ، فلقد كانوا متنبئين غير مهتمين بالأفكار المجردة بل بالاشتغال بالانفعالات المضطربة في دنيا العامة ، وكان حقيقيا بالنسبة لهم كما بالنسبة للمتنبئين الآخرين أنهم فرضوا أنفسهم كرجال مقدسين موهوبين بالقوى المعجزة ، وعلق واحد من خصومهم عليهم بقوله : « خارجيا في الوجه والقول ، تبدو عليهم سيماء» ، وكان لهذا السبب بالتأكيد أن تعاليمهم كانت مقبولة بلهفة ، وعلاوة على ذلك كانوا مثل معظم الوعاظ « الرسوليين» قد عملوا في المراكز التجارية الكبيرة ، وكان معقلهم الرئيس على مايبدو ترويس في شامبين وكانت في حينه المدينة الأكثر أهمية على الطريق من فلاندرز إلى ليون ، وفي ترويس اعتقل فارس بدا أنه كان من اتباع العموريين وأحرق في ١٢٢٠ ، وترددت في ليون أصداء الهرطقة في وقت متأخر يعود إلى ١٢٢٥ . ووجد الجاسوس الذي تغلغل في الطائفة نفسه هائما مع عدد من المبشرين في أنحاء مقاطعة شامبين ، وكانت شامبين مثلها مثل فلاندرز أرضا فرض فيها سلسلة من الحكام الأقوياء السلام وبذلك تمكن السكان من النمو ومن تطوير التجارة والصناعة ، ووجدت هناك صناعة أقمشة مزدهرة ، كما وإن هناك ملتقى للطرق التجارية من البحر المتوسط إلى المانيا ومن فلاندرز إلى وسط وشرق أوروبا ، ومع القرن الثالث عشر كانت المعارض الكبيرة في شامبين قد أصبحت مراكز كبرى للتجارة ، وفي تلك المنطقة المتمدينة الكثيفة السكان كان المبشرون ينتقلون من اجتماع سري إلى آخر ، حيث كانوا يغيبون في حاله من

الوجد ويرون الرؤى ، وكانوا يعظون بنصوص من الكتب المقدسة ويفسرونها تفسيرا هرطقيا ، وهكذا كما اخبرنا كانوا يغوون أعدادا غفيرة من الناس الأبرياء . بل حتى لقد انتجت الطائفة أدبا خاصا بها يصلح لاستعمال العامة ، وقد أدان مجمع باريس ، إلى جانب التأويلات الباطنية الأرسطوطالية كثيرا من الأعمال الدينية الشعبية الصرفة التي كانت كلها باللغة العامية .

وقد حافظ العموريون على مبدأ معلمهم في وحدة الوجود ولكنهم أعطوه محتوى عاطفيا قويا ووجد المجمع أنهم كانوا يتحدثون بلغة أن الله والطبيعة شيء واحد وأن الكون المادي والانسان ليسا إلا مظاهر للذات الالهية ، وصرحوا في إحدى المناسبات بعيقدة أنهم يرون « الأشياء واحد لأن كل ماهو كائن هو الله » ولكن ما هو أكثر إثارة للدهشة هو النتيجة التي استخرجها أحد الثلاثة من زعماء الفتنة من هذا الافتراض : « لقد تجرأ على التأكيد على أنه إلى الحد الذي كان فيه لايمكن أن تلتهمه النار ولا أن يعذب ، لأنه عند الحد الذي كان فيه ، كان هو الرب » . ويمكن للمرء أن يلمس الأفلاطونية المحدثة

ولكن مثل هذه القوة بالتأكيد ، في رجل يحاكم طلبا لحياته ، لاتستمد من مجرد تأمل في وحدة الوجود • ومصدرها في الواقع كامن في مكان آخر ، لقد كمن في صوفية الروح الحرة ، وعندما ادعى العموريون أن كل واحد منهم كان مسيحا وروحا مقدسة ، عنوا كل ما عناه تانشيلم وكانوا قانعين أن ما تعتبره الديانة المسيحية معجزة فريدة للتجسد قد تكررت الآن في كل واحد منهم •

و كانوا في الواقع يعتقدون أن التجسيد كما حدث في المسيح قد تم تجاوزه ، لأن هؤلاء المتنبئين ـ الفرنسيين — قد توصلوا إلى تفسير للتاريخ ذي شبه مدهش بتفسير يواكيم أوف فيور ، و مع ذلك فقد استمدوا نتائج مختلفة جدا منه حيث أنهم في ذلك التاريخ ، المبكر كانوا بالكاد قد عرفوا الكثير حول المذهب الدفين في مخطوطات دير الكالابري،و مثلهم مثل يواكيم رأى العموريون التاريخ مقسما

الى ثلاثة عصور ، تتوافق مع الشخصيات الثلاثة للثالوث المقدس ، و لكن خلافا له ، اعتقدوا أن كل عصر له تجسيده الموائم ، و منذ بداية العالم حتى مولد المسيح تصرف الآب وحده ، و قد تجسد في ابراهيم ، و ربما في الأنبياء الآخرين للعهد القديم ايضا ، والعصر منذ ميلاد المسيح كان عصر الابن ،ولكن الآن كان بدء عصر الروح القدس ، الذي سوف يستمر حتى نهاية العالم ، وقدر لهذا العصر ان يتميز بآخر واكبر التجسيدات ، لقد كان دور الروح كي يستخدم الجسد وكان العموريون أول الرجال الذين فعل بهم ذلك ، او أول «الروحانيين» ، كما دعوا أنفسهم.

و لم يتوقع العموريون ان يبقوا الأرباب الأحياء الوحيدين على وجه الأرض ، بل بالأحرى أنهم سيقودون الجنس البشري كله الى الكمال ، و من خلالهم ستكلم الروح القدس العالم ، ولكن كنتيجة لنطقها سيصبح التجسد أكثر عمومية ، حتى يصبح شاملا في وقت قريب ، وتحت ارشاد «الروحانيين » كانت الدنيا تدخل عصرها السامي ، وفيه يصبح كل رجل ويعرف في نفسه أنه اله وقد تنبأ أنه «خلال خمس سنوات» ، سيكون كل الرجال روحانيين حتى ان كلا منهم سيكون قادرا على أن يقول :« انا الروح القدس» ، وقبل ان «يكون ابراهيم انا» ، تماما كما استطاع المسيح أن يقول«انا ابن الله» و «قبل ابراهيم انا» و مع ذلك ان هذا لم يعن أنه في الايمان العموري بالأخرويات لم تعد المملكة محفوظة لصفوة القديسين ، و كانت أفكار أولئك المفكرين الغامضين منصبة في تعاليم التخيلات المسائحية التي كانت شائعة بين الجماهير ، و قد تنبأ وليم الصايغ انه خلال هذه السنوات الانتقالية الخمسة نفسها سيمر العالم بسلسلة من الكوارث - «المحن المسائحية» - التي سيهلك فيها غالبية الجنس البشري ، حيث يقتل بعضهم في الحروب والمجاعات ، ويبتلع آخرون في هاوية الأرض ، وتلتهم بعضهم النار النازلة من الأعلى ، مما يوضح بدرجة كافية«ان بقية صالحة » كان يتوقع ان تنجو لتتذوق مباهج الالوهية ، علاوة على ذلك لم يعد عصر (ص ١٥٦) الروح لدى العموريين كما كان بين اليواكيميين الالمان

obeikandl.com

يطرد التخيلات الأقدم المتركزة في الامبراطور الأخير ليحل محلهـا ، إن سنوات الاضطراب الخمسة قدر لها أن تبلغ أوجها في هزيمة المسيح الدجال وجنوده ، الذين لم يكونوا سـوى البـابا و كنيسـة روما ، وبعد ذلك ستكون كل الممالك تحت هيمنة ملك فرنسا ، و كان في البداية الملك الحاكم فيليب أوغسطس ، و لكن فيما بعـد صـديق عموري وراعيه ابن الملك البكر ، الذي لن يموت أبدا ، بـل سـيحكم العالم إلى الأبد في عصر الروح .و« سيعطى ملك الفـرنسيين اثني عشر رغيفا ، بمعنى (يمكن للمـرء أن يفتـرض) ان لويس الثـامن سيكون مسيحـا ثانيا ، و سيكون مثله مثل تانشيلم تماما ، واستاذ هنغاريا ، سيتراس مجلسا سريا أو مجمعا مقدسا مـن اثني عشر صيغ على نمط الحواريين الاثني عشر.

و كان يعتقـد أن العمـوريين – و ربمـا كان ذلك صـحيحا – صوفية متناقضين. ورأى راعي دير القـديس فيكتـور قرب باريس – الدير الذي كان في ذلك الوقت يتـزعم كل النصرانية الغربية في النظرية و التطبيق الصوفي – ضرورة لتحذير رهبانه مـن تلك النتـائج الخـطيرة لتلك الصـوفية المنحـرفة « لئلا تتلوث تلك المدينة ، منبع المعرفة بهذا الوباء » . وصاح «هناك بـدع تجـديفية دنسة » يأتي بها اناس هم من حواريي ابيقور بدلا مـن المسـيح ، وبالخداع الخطر يكدون سرا ليقنعوا الناس أن المذنبين لن يعـاقبوا قائلين ان الخطيئة لاشيء، حتى أن أي إنسان لن يعاقب عليها مـن قبل الرب ، واذا كانوا ظاهريا في الوجه والكلام يبدون ورعين فـان جـدارة هـذا الورع تنكر داخليا ، في عقـولهم وفي خـططهم السرية ، ولكن الجنون الفائق والزيف البالغ الوقاحة هـو ان هؤلاء الرجال لايخشون ولايخجلون من القول بأنهم الرب ، أي حمق بـلا حدود ، أي جراة بغيضة أن زانيا ، عشيقا ذكرا ، يوقع الكآبـة في النفس بالعار وسوء السمعة ، وعاء للخطيئة ، يدعى ربـا » وهنا كما حدث كثيرا افراط في تقدير الذات يعبر عن نفسـه فـوق كل شي بالفسق الشامل : « لقد ارتكبوا الاغتصاب والزنا والاعمال الأخرى التـي تمنح السرور للجسـد ، ووعدوا النسـاء اللواتي أثمن

معهن ، والبسطاء الذين خدعوهم بأن الخطيئة لن تعاقب » ، لقد كان هذا اعتراضا سيلفظ مرات ومرات وبسبب جيد ، خلال القرون التالية .

علم اجتماع الروح الحرة

إنه صحيح بالنسبة لكل حركات الهرطقة الكبيرة من أواخر العصور الوسطى انه يمكن فهمها فقط في اطار ديانة الفقر الطوعي ، عندما ظهرت من القرن الثاني عشر ومابعده (ص ١٥٧) ثروة لم يسمع عنها من قبل في غرب أوروبا ، واستمتع معظم الذين استطاعوا ، بالفرص الجديدة للترف والتباهي ، ولكن كان هناك دائما بعضا من راوا في المباهج الجديدة إغراءات كثيرة للشيطان وشعروا بانهم مدفوعون لشجب كل الصفات الملكية ، والسلطة والمزايا والنزول الى الجماهير التي خربها الفقر ، وطالما أن التضاد بين الغنى والفقر كان مذهلا الى حد بعيد في المدن اكثر منه في الضياع ، فقد كان في المدن ان احرز العوز اهميته الخاصة

وكان التلهف على التخلي الطوعي غير محصور في أي طبقة واحدة ، فقد كان يمكن الشعور به أحيانا في طبقة التجار ، التي كانت بين كل الطبقات تستاثر باكبر المنافع المادية في الظروف الجديدة وجاء اكثر المتحولين شهرة الى الفقر الطوعي بطرس فالدو مؤسس طائفة الهرطقة المعروفة باسم الفالدونيين والقديس فرانسيس كلاهما من تلك الطبقة ، وكانت أدنى طبقات الكهنوت المدني التي كانت تلقى المدد والتعزيز من الطبقة الأدنى من المجتمع كانت ايضا قلقة مشوشة ، وكان كثير من الكهنة يحتجون على الأبهة والدينونة التي يغرق فيها الأساقفة والمطارنة الكبار ويهجرون ابرشياتهم لاتباع حياة فقر كلي ، وشعر العديد من رجال الدين والكتاب في الرهبانيات الدنيا ـ والمفكرين وهم كثيرا ماكانوا من ذوي التعليم الكبير ـ بدافع مماثل ، وليس هناك من

شك انه طالما ان الفلاحين والحرفيين يمكنهم الانضمام الى حملة صليبية او موكب لطامين ، وبذلك يستطيعون احيانا استبدال فقرهم الطبيعي ، الذي كان لامفر منه بعوز ارادي اكثر تطرفا ، وعليه كانوا يشعرون بانهم اهل للمكافأة ، وفي الأوصاف المعاصرة للفقراء الطوعيين هناك اشارات كثيرة للنساجين ، واذا كان كثير من هؤلاء في القرن الثاني عشر من الزاهدين الذين في طلبهم للفقر أصبحوا عمالا في الصناعة الوحيدة التي كانت متطورة بدرجة كافية لاستخدام العمالة المؤقتة فانه من القرن الثالث عشر ومابعده انضم اليهم بالتأكيد حرفيون حقيقيون .

وقد شكل الفقراء الطوعيون طليعة اجتماعية وسياسية قلقة غير ثابتة ، وكان أعضاؤها يتنقلون باستمرار على طرق التجارة من مدينة لأخرى ويعملون على الأغلب في الخفاء ويجدون من يستمع اليهم ، واتباعا بين كل العناصر القلقة المشوشة في مجتمعات المدن ، وقد رأوا في انفسهم فقط الأشباه الحقيقيين للرسل ، وفي الحقيقة للمسيح ، وسموا طريقتهم في الحياة « بالرسولية » وصعودا الى منتصف القرن الثاني عشر كان لهذا السبب اكثر منه بسبب اي مذاهب دينية غريبة انهم كانوا احيانا يدانون بالهرطقة ، ولكن منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ومابعده اظهرت تلك الحشود من الطوافين « المتسولين المقدسين » من كلا الجنسين استعدادها لتمثل أي ، لابل ، كل مذهب للهرطقة كان موجودا ، واذا كان الكثيرون قد أصبحوا كاثاريين او فالدونيين (ص١٥٨) او يواكميين كان هناك ايضا من اصبح من اتباع وناشري هرطقة الروح الحرة ، وحدث بالفعل حوالي ١٢٣٠ في مقاطعة تانشيلم القديمة ـ انتويرب ـ ان كان هناك شخص اسمه وليم كورنديس يبين مدى سهولة الجمع بين السمات الخارقة للطبيعة التي كانت سمة مميزة جدا لتلك الهرطقة وديانة الفقر ، اراديا او ليس اراديا تماما ، وبالنسبة لهذا الرجل الذي تخلى هو نفسه عن مرتبة كنسية ذات دخل من اجل اتباع الحياة « الرسولية » اعلن انه في الوقت الذي كان فيه الرهبان

ملعونين تماما لعدم التزامهم بالفقر التام ، كان الفقـر الذي يتبـع بشكل كامل يمحو كل الخطايا ، وتبع ذلك انه الفقير كان يمكنه مثلا ان يزني دون ان يكون اثما ، وبالفعل يقال ان كورنيلس نفسـه كان « مستسلما تماما للشبق » وبعـد عشرين سـنة واكثـر كانت السلطات الاكليروسية مازالت تحاول استئصال مثل هذه الافكار من بين سـكان انتـويرب ، وفي حينه كان الناس يتمسـكون بـأن كل الأغنياء فاسدون بسبب البخـل ، وكانوا ملعـونين بشـكل مـؤكد حتى أن امتلاك غيار مـن الملبس كان يشـكل عقبـة في طـريق الخلاف ، وأن يدعو رجـلا غنيا للعشـاء كان ذنبـا عظيمـا ، لأن الصواب ان تأخذ من الغني من أجل ان تعطي الفقير ، ولكن الفقراء من جانب اخر كانوا بالضرورة في حالة من النعمة لايمكن للانغماس الجسدي بأي طريقة ان يفسدها .

وفي وقت مبكر من القرن الثالث عشر ظهـرت مـراتب الرهبـان المتسـولين الكبيرة ، ، الفـرنسسكان ، والدومنيكان وبـدات بمساعدة من الكنيسة تفعل الكثير مما كان المهراطقين الرسـوليون يفعلونه لمعارضة الكنيسة ، وقـد انضـمت نخبـة الى تلك المراتـب كوعاظ متجوليين وكانوا يطبقون الفقر وكل نوع من انواع انكار الذات ، وكسبوا إخلاص جماهير المدنيين وفي الوقت نفسه انضمت اعداد كبيرة من اهـل المدن الى الفـرنسسكان ومـرتبة الدومنيكان الثالثة ، وبينما كانوا يعيشون في المجتمع كعامة الناس فانهم كانوا ينافسون الاخوة الرهبان النظاميين في زهدهم ، وبـاقرار مـراتب الرهبان المتسولين كانت الكنيسة لفترة من الزمن قادرة على التحكم والاستفادة من الطاقات الانفعالية الي كانت تهـدد امنهـا ، ولكن بالفعل بحلول منتصف القرن اصبحت هذه الطـريقة مـن التصريف اقل فعالية حيث فقدت المراتب كثيرا من حماسها الأولى ، واصبح زهدها اقل صلابة ، وضاعت هيبتها بالتالي ،ووجـدت الكنيسـة نفسها مرة أخرى في مواجهة مجمـوعات مسـتقلة مـن الفقـراء الاختياريين ، وانفصـلت المجمـوعات ذات الزهـد المفـرط على اختـلافها في أوروبـا عن الجسـم الرئيسي للفـرنسسكان

والفراتيسللي ، ومن جانب أخر شهد شمال أوروبا احياءا كبيرا للروح الحرة (ص١٥٩)

وبدات هرطقة الروح الحرة بعد كبح دام نحو نصف قرن ، تنتشر بسرعة مرة اخرى نحو نهاية القرن الثالث عشر ، ومن حينه ومابعد حتى انتهاء العصور الوسطى انتشرت بوساطة الرجال الذين كانوا عادة يعرفون بالبيغرد الذين كونوا نظائر غير رسمية من العامة لمراتب الرهبان المتسولين ، ولقد كانوا هم ايضا من الرهبان المتسولين ـ يحتمل في الواقع انه من اسمهم تم اشتقاق الكلمتان الانكليزيتان : beg يشحذ و begger شحاذ ـ وكانوا يترددون على المدن ويطوفون في الشوارع في مجموعات صاخبة يصرخون طلبا للصدقات ويصيحون صيحتهم المتوسلة المميزة : الخبز من اجل الله » ! وكانوا يلبسون حللا تشبه بالأحرى حلل الأخوة الرهبان مع انها مصممة خصيصا لتختلف عن تلك في بعض التفاصيل ، وكان الثوب احمر احيانا واحيانا مشقوقا من الخاصرة الى الأسفل ، ولتأكيد مهنة الفقر كانت قلنسوة الرأس صغيرة ومغطاة بالرقع ، وكان البيغرد مجموعات رهبانية اخوية صعبة التحديد وغير مستقرة تجول في العالم ، كما قيل لنا ، مثل الرهبان المشردين وعند أقل اضطراب او ازعاج يفرون ، منقسمين الى جماعات صغيرة ، تهاجر من جبل لجبل مثل بعض العصافير الغريبة ، وكان هؤلاء « الشحاذون القديسون » الذين عينوا انفسهم مليئين بالازدراء للرهبان والأخوة الذين يعيشون حياة سهلة رخية ، ومغرمين بمقاطعة الخدمات الكنسية ، ولاصبر لهم على التنظيمات الاكليروسية ، وكانوا يعظون كثيرا دون تخويل ، لكن بنجاح شعبي كبير ، ولم يلتزموا بأي مذهب هرطقي معين في العادة ، ولكن مع بداية القرن الرابع عشر ادركت السلطات الاكليروسية ان بينهم عدد من المبشرين بالروح الحرة .

وبشكل سطحي بدا المهرقطون من البيغرد او (كما أصبحوا

يسمون في القرن الرابع عشر) أخوة الروح الحرة انهم ليسوا اقل زهدا من المهرطقين « الرسوليين » للأجيال القديمة ، واستوطن بعضهم قرب المدن وعاشوا كنساك ، على العطايا التي كان يجلبها لهم المعجبون ، وفي حالة واحدة على الأقل في كولون شغلت طائفة من البيغرد المهرطقون « بيتا للفقر الطوعي » وعاشت على الصدقات التي أمكنهم جمعها من الشوارع ، وكثيرا ماكان مثل هؤلاء الناس يتبعون الحياة الهائمة نفسها بلا ممتلكات ولابيوت مثل البيغرد الآخرين ، ولم يكن لبعضهم اي مقر ثابت بالمرة ، ولايحملون شيئا ويرفضون الدخول الى اي بيت ويصرون على البقاء في الطريق يأكلون اي طعام يقدم لهم ، و – مرة أخرى مثل بقية « الفقراء الطوعيين » – كانوا يشملون اناسا ينحدرون من اسلاف اجتماعية متنوعة جدا ، واذا سمعنا عن اخوة للروح الحرة ممن كانوا حرفيين ، فاننا نسمع عن آخرين ممن جاءوا من عائلات مزدهرة راسخة الأصول – ومن اخرى ايضا – كما في كل الحركات المسائحية – جاءت من الطبقات الأقل ثراء من أهل الفكر الذين كانوا يشكلون الطليعة السياسية والاجتماعية : رهبان سالفون وكهنة وكتاب من مراتب صغيرة ، ولكن الكل على السواء يبدو انهم كانوا مثقفين وواضحين : ومرات ومرات نجد ان الكهنة الذين كان عليهم محاربة هؤلاء الناس فزعين من الدماثة والبلاغة في تعليمهم ، ومن (ص١٦٠) المهارة التي كانوا يعالجون بها المفاهيم الدينية العويصة والمبهمة .

ومثل اي متنبئ آخر كان الواحد من أتباع الروح الحرة يدين بصعوده لسمعته في الزهد ، التي تعتبر كضمانة تقوي صنع الأعمال الخارقة ، وجزئيا لمؤهلاته الشخصية من البلاغة والوقفة والقدرة على الاحتمال ، ولكن الاتباع الذين كان يبحث عنهم كانوا مختلفين عن أتباع المتنبئين الآخرين ، انه لم يكن يروق لمن لا اصل لهم والمشوشين الفقراء بل للناس الذين لديهم اسبابا أخرى اقل دفعا للشعور بالضياع والاحباط : للنساء ولاسيما غير المتزوجات والأرامل في الطبقات العليا من المجتمع المدني ، وبسبب الحروب

المستمرة الى حد ما ، والنزعات ، وجزئيا بسبب البتولة في هذا القطاع الكبير جدا من السكان الذكور الذين شكلوا الأكليروس النظامي والمدني ، كان عدد النساء دائما يفوق كثيرا اعداد الأزواج المحتملين ، وفي طبقات الفلاحين والحرفيين كانت العوانس والأرامل يمتهن الصناعة والزراعة ، وفي الأرستقراطية منها كان يمكنهن دائما ان يصبحن راهبات ، وبالنسبة للنساء المولودات في عائلات اغنياء التجار ، من جانب آخر ، لم يقدم مجتمع العصور الوسطى دورا معروفا سوى الزواج ، وليس مدهشا ان العوانس والأرامل اللواتي لاحاجة لهن للعمل وحتى بدون واجبات منزلية يؤدينها ، ولايشغلن رتبة محددة ولايتمتعن بأي تقدير اجتماعي ـ كثيرا ماكن يتشوقن بالقوة نفسها كسائر الجماهير من الفقراء الى مخلص ما ، الى رجل مقدس بمساعدته يمكنهن بلوغ تفوق بالكمال نفسه الذي عليه ضعتهم ، وفي كل الأزمات شغلت نساء كهؤلاء دورا كبيرا في حركة هرطقة الروح الحرة وعن العموريين علمنا بالفعل انهن عملن كمرشدات روحيات غير مخولات « في بيوت الأرامل » ، وعندما قبض عليهن جرى ايضا احضار عدد كبير من التابعات من الأناث الذين « افسدوهن وخدعوهن » الى باريس لاستجوابهن ، وفي اجيال تالية وحتى نهاية العصور الوسطى

كانت الحركة مدينة بالكثير للنساء المعروفات باسم البيغوين ـ نساء المدن ـ وكثيرا ماكن من اسر ثرية ، كرسن أنفسهن لحياة دينية بينما كن يتابعن الحياة في الدنيا ، وخلال القرن الثالث عشر ، اصبح البيغوويين عديدات جدا في المنطقة التي تعرف الآن ببلجيكا ، وفي شمال فرنسا ، وفي وادي الراين ـ وكان في كولون الفين من البيغوويين ـ وفي بافاريا وسط المانيا في مدن مثل مغدبرغ ، وكعلامة على حالتهن تبنى هؤلاء النساء لباسا دينيا عبارة عن رداء ذا قلنسوة من الصوف الرمادي او الأسود وحجابا

ولكن لم تكن هناك طريقة واحدة شائعة بالنسبة لهن جميعا ، وعاش بعضهن حياة ـ باستثناء بعض التوجيهات الدينية العامة اختلفت قليلا عن حياة النساء الأخريات ، لقد كن يعشن مع عائلاتهن (ص ١٦١)او يستمتعن بدخل خاص ، او يدعمن

انفسهن بالعمل ، وكانت أخريات يعشن حياة غير مرتبطة كراهبات متسولات جوالات : نظيرات حقيقيات من الاناث للبيغزد ، ومعظم البيغويين على أي حال كن يشكلن انفسهن في جماعات دينية غير رسمية ، ويعشن معا في بيت او مجموعة من البيوت ، وبالنسبة للكنيسة كانت هذه الحركة النسائية واسعة الانتشار تمثل المشكلة نفسها ، مثل اختها الحركة « الرسولية » بين الرجال وبالفعل في النصف الثاني من القرن الثالث عشر جذبت البغويات المتسولات اللائي يستجدين اما لأنفسهن او نيابة عن جماعة ما ، شك السلطات الكهنوتية ، والى جانب نظرائهن البيغرد تمت ادانتهن من قبل مجلس ابرشية ميذز في ١٢٥٩ ، وقد تكررت الادانة في ١٣١٠ ، وقد حرمت هذه المجالس « الشحاذين المقدسين »، الذين كانوا يميزون انفسهم بالسلوك واللباس عن المسيحيين الآخرين ، وأمرت بطردهم اذا رفضوا اصلاح طريقتهم من كل الأبرشيات ، وفي الوقت نفسه بدات أصولية البيغويين تصبح مسألة موضع بحث من جديد ، وفي وادي الراين كان الرهبان ممنوعين من الكلام مع أي بيغويين الا في كنيسة او في حضور شهود وبالنسبة للراهب كان دخول بيت البيغويين يستلزم العقاب بالحرمان ، وتضمنت التقارير حول الاساءات في الكنيسة التي تقدمت للاعداد من اجل المجمع المسكوني في ليون في ١٢٧٤ ، شكاوى عديدة ضد البيغويين ، وروى أحد الفرنسسكان من تورناي أن البيغويات مع أنهن كن غير مدربات في اللاهوت كن مبتهجات بالأفكار الجديدة المفرطة الصقل فلقد ترجمن الكتب المقدسة إلى الفرنسية ونشرن خفاياها ، وحاضرن فيها بلا وقار في اجتماعاتهن وفي الطرقات ، وكانت الأناجيل العامية المليئة بالاخطاء والهرطقات متوفرة للعموم في باريس ، وشكا أسقف الماني شرقي من أن أولئك النسوة كن كسولات منهمكات في نشر الشائعات وشريرات يرفضن إطاعة الرجال بذريعة أن الرب يخدم بشكل افضل مع الحرية .

ولم يكن لدى البيغويين مقاصد هرطقية عملية ثابتة ، ولكن كانت لديهن رغبة عميقة لأكثر صور الخبرات الصوفية تزمتا ، وكان

يشارك في هذه الرغبة بالطبع كثير من الراهبات ، فقط لأن صوفية البيغوويين كان فيها إغراءات كانت الراهبات عادة ممنوعات منها ، وكان ينقص البيغوويين تنظيم المراتب النظامية ، وفي الوقت نفسه لم يحظين بإشراف مناسب من الاكليروس المدني ، الذي كان تعاطفه قليلا مع هذا التدين العصري الجريء ، وإنه حق أن أخوة الرهبنة كانت أفضل قدرة على توجيه الطاقات الانفعالية لدى تلك النسوة ، ولهذا خدمت الكنيسة ولم تهددها ، وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت كل جماعات البيغوويين تقريبا منتسبة إلى الفرنسسكان والمراتب الثالثة من الدومينيكان . (ص ١٦٢) ولكن أخوة الرهبنة لم تنجح أبدا في السيطرة على الحركة كلها ، وبدقة نجد بين أكثر البيغوويين زهدا بعضا ممن قبلن كموجهين روحيين لأنفسهم ليس واحدا من أخوة الرهبانية بل من أخوة الروح الحرة .

وبحلول ١٣٢٠ دفع الاضطهاد بحركة الروح الحرة إلى السرية ، وبعد ذلك بدا أن البيغرد المهرطقين قد أصبحوا أقل تسولا وأنهم قد اعتمدوا بالأحرى على فهم تآمري كانوا قادرين على تطويره باتفاق مع بعض طوائف البيغوويين .

وعندما كان مبشر من الروح الحرة يدنو من مثل هذه الجماعات كان يؤخذ على الفور ويقدم له المأوى والطعام ، وتحت قسم المحافظة على السرية أرسلت الأخبار إلى جماعات ميالة للتعاطف إن « ملاك الكلمة الالهية » قد وصل وإنه ينتظر في مخبئه ، وتدفقت جماعات البيغوويين من كل صوب للاستماع إلى الرجل المقدس وكان البيغرد يعظ بمذهبه الصوفي ، المغلف بعبارات معقدة ، وكما قال أحد المؤرخين : « بكلمات لطيفة بشكل لايصدق وبروحانية سامية وغيبية بقدر ما يمكن للسان الألماني أن يتدبرها » ، ولهذا نجد البغوويين يعلن وهن منتشيات أنه « رجل له شبه كبير بالرب والفة عظيمة معه » . وكان بهذه الوسيلة وفي هذا الوسط أن حفظ المذهب وتطور وأصبحت الفية الروح الحرة امبراطورية خفية ، تمسك بها معا روابط عاطفية ــ التي بالطبع كثيرا ماكانت روابط جنسية ــ بين الرجال والنساء .